الضياء
بهرا
Bahra No 449. Sun. 24 Aug 2008
العدد ٤٤٩- الاحد ٢٤ آب ٢٠٠٨م - ٦٧٥٨ آ

خلاصة الشعر

Sabah_ alkass@yahoo.com

صباح القس/ بغداد

سَلْ ديار الحي ما غيّرها
ومحاها ومحا منظرها
وهي اللاتي اذا ما انقلبت
صيرت معروفها منكرها
انها الدنيا كظل زائل
نحمد الله كذا قدّرها

هذه الابيات قالها الشاعر الكاتب الوزير محمد بن الملك الزيات وكنيته ابو جعفر.

كان ابوه من تجار بغداد المعروفين، وكان يشجع ابنه على ممارستها. لكن الابن رفض هذا الإتجاه وفضل الدراسة والكتابة واستطاع من خلالها ان يكون وزيراً ثلاث مرات.

واول قصيدة قالها في مدح الحسن بن سهل ونال جائزته بعشرة ألاف درهم ولم يكن يقصد نيل المال لانه ثري من عائلة ثرية ولكنه كان يتطلع الى المعالي واشار الى ذلك بقوله:

لم امتدحك رجاء المال اطلبه
لكن لتلبسني التحجيل والغررا

وكان يقصد بالتحجيل والغرر ان يصبح معروفاً مشهوراً فيتقرب بواسطته الى الخلفاء وغيرهم من كبار القوم وهكذا كان.

وكان شاعراً مجيداً معجبا بالمطولات لسعة مساحة ثروته اللغوية وقدرته على تدوير المعاني مع حسن انتقاء الالفاظ بعيدا عن التكلف والتغريب، واذا جاء بالقصائد القصار فهو قادر مقتدر عليها فيجودها ويقولها.

ومما جنى عليه قوله: الرحمة خَوَرٌ في الطبيعة، وضعف في المُنَة، مارحمت شيئا قط.

فلما قبض عليه المتوكل بوشاية من غريمه احمد بن ابي داود استعمل له تنور حديد وجعل فيه مسامير لايقدر معها ان يتحرك الا دخلت جسده، ثم احماه له وجعله فيه فكان يصيح: ارحموني، فكان يجاب عليه، اما قلت: مارحمت احداً قط. فاصبر على حكمك.

ومن جميل شعره وفاؤه لزوجته المتوفاه واسمها سكرانة ام ابنة عمر فقال فيها

يقول ليّ الخلاّنُ لو زرت قبرها
فقلتُ: وهل غيرُ الفؤاد لها قبرُ
على حين لم أحدُثْ فاجهل قدرها
ولم أبلغ السنّ التي معها الصبرُ

وكعادة بعض شعراء وكتاب تلك الفترة فقد كان يتعشق الغلمان ايضا ولكن بغير اسراف كما كان عند ابي نواس واضرابه.

فقد اجتازه يوماً بديعٌ غلام عمير المأموني وكان احسن خلق الله وجهاً وكان الزيات يحبه ويجن به جنونا فقال ابياتا ومنها

اقول لما ان بدأ مقبلا
ياليتني فارسُ ذا الفارس

وعودة الى ابياتنا المتقدمة فاقول: ان شاعرنا الزيات قالها لما قبض عليه ووضع في حديد ثقيل، لابد من كان في مثل هذه الحال ان يتذكر الدنيا وكرها وفرها وقبولها وادبارها وانها لا تستقر على حال، وسبحان مغير الاحوال الذي يحول رجلا شاعرا كاتبا وزيرا ثريا ذا عزم شديد الى انسان عادي مثقل بالحديد لذلك فهو يطلب من صاحبه ان يسأل الديار والناس ما الذي تغير؟ وان الناس والدنيا اذا انقلبت على صاحبها جعلت معروفها منكرها وقلبت له ظهر المجن كما يقول المثل.

لذلك فهو يستخلص من خلال هذه المعاناة تجربة وحكمة يمكن ان يفيد منها كل جبار عنيد. فقد شبه الدنيا كظل زائل وهذه حقيقة لان الشمس تعكس ظلا وهذا الظل يزول بزوال الشمس والشمس دائمة الظهور والزوال اي لا تبقى على حالها وهكذا الحياة والدنيا. وهذه حكمة لمن يريد ان يعتبر من تجارب الدنيا، فاين الجبابرة الكبار والملوك العظام والعلماء والاعلام. لقد دالت دولتهم وشبعت منهم تربتهم ونحمد الله الذي هكذا قدرها كما ختم شاعرنا قطعته.

كتابات مسمارية في مفكرة انسان اشوري

الوقوف صمتاً على أرواحنا نحن الأحياء الأموات

ابراهيم بادل

.. أولسنا نحن أصحاب أولى الحضارات وأعظم الحضارات؟ إذاً.. لابد أن نكون متشحين بالسواد ومتسربلين به في كل مكان وزمان!.

* إلى روح الشهيد الآشوري الذي آثر أن يموت حيا.. من أن يعيش ميتاً!.

* سؤال:

هل الذين ماتوا في "سميل" قبل ثلاثة ارباع القرن من الزمن.. هل هم شهداء أم قتلى أبرياء تستصرخنا دماؤهم.. "أنا قتلنا بوحشية وهمجية وبربرية ما عرف الإنسان مثلها عبر العصور والأزمان"؟!.

* جواب:

اليوم هو السابع من آب.. وقبل اليوم بعقد من الزمن، والوقت التاسعة مساءً والمناسبة ذكرى يوم الشهيد الآشوري، والمكان في حي من أحياء المدينة.. وفي قبو أحد البيوت العامرة، يذكرني بما قرأته في الكتب عن الآباء والأجداد.. في بداية عهد الإيمان بالمسيحية ونضالهم في ممارسة شعائر وطقوس معتقدهم الجديد، وهم يتخفون في الكهوف والمغاور، والأنفاق والسراديب.. يتوارون عن الأنظار خوفاً من قمع وبطش وتنكيل مضطهديهم.

جو المكان وأنت تدخل إليه يوحي إليك بسرية الحدث وكتمانه.. ويحرك بداخلك أحاسيس شتى تغمرك بأفكار كثيرة تخطر لك في البال وتزيدك شعوراً بعظمة المناسبة وقدسيتها.

تلقي التحية على الذين تواجدوا قبلك.. وعيناك تتقافزان على الوجوه.. تتفحصها وتخطف منها الكثير من الإيحاءات والمعاني التي ترتسم على الشفاه، وفي العيون، وبين القسمات.. الجامدة منها.. والمستغربة منها.. والمتسائلة أيضاً.. والمتغافلة كذلك.. تبحث لك عن مكان بين المقاعد المتفرقة في صفوف غير متناسقة ولا متراصة، تختار كرسياً كما غيرك يختار.. أو موضعاً تتظاهر بالأهمية من الجلوس فيه وأنت ترى بين وقت وآخر من يدخل إلى المكان بهدوء وصمت، ويأخذ له موقعاً بين الحاضرين وهو يحاول أن لا يكون بمواجهة أحد الأعمدة الأسمنتية العريضة القائمة والمنتصبة من أساسات البناء تحجب عنه رؤية الآخرين، تتذكر للوهلة أن هناك لافتة قماشية سوداء اللون ضيقة وطويلة.. معلقة بالعرض في جهة ما يفترض أنه صدر المكان.. كتب عليها عبارة ما عن الشهداء، تريد أن تقرأها ولكن هناك عمود أسمنتي يواجهك ويحجب عنك رؤية اللافتة القماشية السوداء كاملة، تتململ فوق كرسيك وتميل نحو اليسار فلا ترى اللافتة، تنهض ولكنك لا تستقيم وفي ذهنك أنك قد تحجب بوقوفك وتمنع الرؤية عن غيرك، تميل نحو اليمين فتري الشيء الكثير من اللافتة ولكن ليس كلها.. وتقرأ عليها عبارة: "من أجل الوجود والحرية".. وتتساءل في سرك وتهمس في ذاتك:

جميل أن تكون كلمة "الحرية" مكتوبة باللون الأبيض وكذلك كلمة "الوجود" ولكن.. أوليس الأجمل أن تكون قطعة القماش "اللافتة" باللون الأحمر؟. – لأن للحرية "البيضاء" باب بكل يد مضرجة يُدق – ولكنك تتذكر أنك تحتفل بمناسبة جليلة وعظيمة: "إنه يوم الشهيد الآشوري"، إذاً لا بدّ أن تكون اللافتة سوداء.. لأن السواد دلالة الحدث الجلل العظيم، هكذا عرفناه وهكذا فهمناه وهكذا عملنا به، وقد أثبتنا "نحن الآشوريين" للعالم أجمع وفي كل الأزمنة ومنذ الأزل.. إننا من أكثر الشعوب وأعظم الشعوب التي يستهويها اللون الأسود ويناسبها، ويأتي على قياسها.. ويليق بها، وقد أثبتنا كذلك أيضاً أننا من أكثر الشعوب قوة وقدرة على تحمل الأحداث الجسيمة والمآسي العظيمة والأليمة.. والاتشاح بالسواد صار سمة من سماتنا.. وعادة من عاداتنا وتقاليدنا وتراثنا، صار عاملاً من عوامل حضارتنا، أولسنا نحن أصحاب أولى الحضارات وأعظم الحضارات؟. إذاً.. لا بدّ أن نكون متشحين بالسواد ومتسربلين به في كل مكان وزمان وجيلاً بعد جيل، أولسنا إنسانيين؟. إذاً.. لا بدّ أن نكون معذبين أقسى العذابات ومتألمين أشد الآلام.

تهرب من هذه الرؤى والخيالات والتصورات للحظات قصيرة وأنت ترى البعض منهمكاً ومنشغلاً بالتحضير في بعض النواقص اللازمة لبدء الاحتفال.. ولا بدّ من وقت إضافي في الدقائق الأخيرة، زيادة عن الموعد المحدد تتغافل عنه.. تتجاوزه إلى أبعد الحدود وتتناساه، متشاغلاً بأحاديث جانبية بينك وبين من يجالسك.. والذين بجانبك وحواليك يستمعون إليك ويشاركون في الحديث عن المناسبة، عن الشهيد والمعاني السامية التي تتجلى في الشهادة، عن الذات الآشورية، عن الحياة.. وكذلك عن "نهر الخابور".. والخابور اليوم قد شحّت مياهه وقد نضبت ينابيعه وقد كثرت عنه الأقاويل!. والحقيقة أنه كان نهراً عظيماً في زمن ما.. وفي يوم ما.. ومنذ الأزل، منذ أن ولد "الإله آشور" ونهر الخابور يجري في واديه، تنساب مياهه هادئة في الأعماق.

يغمر الفيافي والبطاح ويشق طريقه في وجه الأرض، في السهل راكداً.. يجتاح في المنحدر.. ويُهدد الإنسان والفلاح بالخطر.

وكانت النواعير تدور على جنباته وتسمع عنينها في كل قرية وفي كل بستان، تحمل مياهه في "سطولها" وترفعها في دورانها إلى فوق فترشرشها الرياح في الجنبات على الأرض، فيزهر البابونج والختمية والخبيزة والريحان.. وتفرغها السطول في السواقي ليشرب منها الزرع والضرع والحقل والشجر، فيعمّ الاخضرار والخير في كل بيت ويكثر الزاد والثمر.

الصمت فجأة يعيدك إلى مسرح الزياح، همهمةٌ ما تسمعها عبر "مكبر الصوت".. يُعلن فيها عريف الحفل عن بدء الاحتفال ويطلب إلينا جميعاً أن نقف دقيقة صمت حزناً على أرواح شهدائنا الأبرار: "شهداء الأمة الآشورية".. والوطن.. إكباراً وإجلالاً لذكراهم الطيبة، الكل يقف في صمت وخشوع وكأن أرواح الشهداء ترفرف فوق الرؤوس، تنحني أكثر من غيرك وتطأطئ رأسك وهامتك بمهابة.. وتضم يديك إليك وتغرق في الأفكار، في الأوهام، في الأمنيات والأحلام وأنت تسأل ذاتك.. تعاتبها، تلومها، يذكرك وعيك ويؤنبك ضميرك في اللحظة.. وتهمس في سرك وقرارة نفسك: "أو هل تكفي دقيقة صمت واحدة نقفها حداداً على أرواح شهدائنا الأبرار"؟. الذين سقطوا مضرّجين بدمائهم الزكيّة.. وقد سالت في كلّ مكان وغمرت كل شقوق الأرض والوديان.. وفاضت فوق كل المرتفعات والتلال والهضاب والجبال، دقيقة صمت واحدة . يا لنا من جاحدين متخاذلين خاملينَ غافلين ومغالين، دقيقة صمت فقط؟. ما أبخس هذا الثمن.

الوجوه تتماوج وتتراقص وأنا أنظر إليها.. وتختفي كل الصور والأشكال في غلالة الدموع في عيني.. "لست أدري".. ربما في كل العيون.. وتحس بها دافئة على الخدين، تحاول أن تمسحها خلسة.. أن تخفيها، تكتم تنهيدة مخنوقة بالغصة تصطرع في الصدر وتخفق بين حناياه، تكاد الآن أن تتفجر في أعماقك، وتحترق الحسرات في أنفاسك.. والدقيقة تسمع صدى صمت ثوانيها يتسارع في نبضك في خفقان قلبك، وتنتهي الثواني الستون بكلمة: "شكراً" تسمعها عبر "مكبر الصوت" وتموت الدقيقة وينتهي الصمت وقوفاً.. وتعود من جديد إلى الجلوس على كرسيك وتتساءل في نفسك: أولسنا "اليوم" نحسدُ شهداءنا الذين قضوا قبل أكثر من نصف قرن بخمسة وعشرين سنة.. في سميل، في نينوى، في كل أرض الرافدين؟. أوليسوا أحياء خالدين عند ربهم يرزقون؟. أولسنا نحييهم اليوم "نحن الأحياء الأموات" ونحيي ذكرى سقوطهم فوق ثرى الوطن "بيث نهرين".. وقد قُتلوا بوحشية وهمجية وبربرية ما عرف الإنسان مثلها عبر العصور والأزمان؟. وأتساءل.. والقهر يكاد يُثلج الدم في شراييني:

ولكن إلى متى سنبقى هكذا نبكي أو نتباكى على شهدائنا الأموات الأحياء.. في قلوبنا وأفئدتنا، في وجداننا وضميرنا، في وعينا وإدراكنا، في عقلنا وتفكيرنا؟. وهل كتب علينا أن نذرف الدموع في كل زمن وحين.. على من ماتوا؟!. وننسى أو نتناسى أنفسنا، ونحن الأحق بالبكاء والرثاء. نحن الذين عشنا منذ عصر "دوركات ليمو".. ومازلنا نعيش اليوم قريبين من "الخابور" هذا النهر العظيم.. وعلى جنباته وضفافه – التي كانت خضراء وخيّرة – وسبحنا في مياهه الغزيرة.. وشربنا منها حتى ارتوينا.

واليوم.. كثيراً ما نتذكر أو يحنّ أحدنا إلى سماع عبارة: "خابوري يا عنب".. التي كان يرددها الباعة المتجولون في أسواقنا وأحيائنا وحوارينا أيام زمان، لكن منذ سنوات.. بعيدة غابت هذه العبارة عن آذاننا ولم نعد نسمعها من الباعة المتجولين في شوارعنا كما في السابق.. ومن هنا أحسسنا وتبيّن لنا أنّ أمراً ما قد حدث وضرراً ما قد وقع!. إذاً، لقد تضررت كروم العنب أيضاً في قرى الخابور.. وأشجار المشمش والتفاح والرمان والشنشلو – هكذا قالوا – شجر الحور ايضا تضرر لأن نهر الخابور قد شحّت مياهه وقد نضبت عيونه وقد توقفت ينابيعه عن الجريان!. صدقاً أقولها.. وبلا مبالغة أو مغالاة: منذ سنوات عديدة مضت، ربما عشرين سنة.. زادت قليلاً أو نقصت ليس هذا هو المهم، أحد الأصدقاء كتب إليّ من بلد أوربي.. كان قد هاجر إليه منذ عقدين من الزمن أو أكثر، لم أعد أذكر ذلك بالتحديد.. لأن هموم الحياة الكثيرة، والعديد من الأمور الأخرى أيضاً.. قد تراكمت بعضها فوق بعض في مساحة الذاكرة البعيدة، لهذا فمن الصعب أن نسترجع أو نتذكر ذلك بدقة وسهولة.. كما قد يتبادر إلى الأذهان في بعض الأحيان، كتب في إحدى رسائله – وهي بالمناسبة قليلة جداً وقصيرة جداً – يصف فيها مشاعره بالكثير من الفرح الممزوج بالاستغراب والعجب.. وهو يكاد لا يصدق ذلك ويقول بالحرف:

هل تعرف أن العنب الخابوري يباع هنا أيضاً ؟!. وقد وجدت منه في أحد الأسواق.. ويضيف الصديق قائلاً بسخرية محببة.. صدق أو لا تصدق، لست مازحاً.. وليس شبيهاً به لأنني أعرف العنب الخابوري جيداً.. وقد عشت منه ومعه طفلاً وشاباً، أعرفه من حبته الكبيرة التي لم تكن تسع الفم إن لم تأكلها بقضمتين أو على دفعتين، أعرفه من مذاقه الحلو وطعمه الفريد ونكهته المميزة، أعرفه من خمر عصيره اللذيذ في الخوابي العتيقة، ويستطرد الصديق قائلاً:

يا رجل.. "لحم أكتافي من خيره".. كيف لا أعرفه؟!.

حديث عاطفي متوتر وهادئ كالهمس يلامس وعيك ويعيدك إلى ذاتك وإلى من بجانبك والذين يحيطون بك. تشارك في التصفيق وتلقي نظرة زاحفة على الجميع.. في الوجوه.. كل الوجوه وشيء ما في وجدانك يتوقد ويشع ويتوهج كوميض البرق في ليل مدلهم وجوّ عاصف بالمطر والرعد، وتتساءل لأن ليس لك غير أن تتساءل آلاف المرات: لماذا يحدث كل ما يحدث؟. ولماذا الكل ضدّ الكل؟. ولماذا صار الإنسان غير إنسان؟. ولماذا نحن هنا اليوم؟. أو بعضنا.. في هذا المكان الشبيه بالسرداب إن لم يكن، بالكهف إن لم يكن، في هذا القبو الخانق بالأنفاس.. متوارين عن الأنظار.. نقيم قداساً وجنازاً ليس كالقداديس والجنائز.. "وبعضنا الآخر".. هناك في مكان ما، في سرداب ما، في كهف ما.. أو في زنزانة ما.. الليل فيها بلا نهار.. أو خلف ألف جدار وجدار.. أعود إلى جوّ المكان والمناسبة بعد رحلة قصيرة طويلة مع التخيلات والصور الحالمة وأشارك بالتصفيق.. والذي يجلس بجانبي ينظر إليّ ويميل نحوي ويحدثني هامساً: "ما بك ؟.. أراك هنا ولكنك لست هنا، ماذا في الأمر؟." ألتفت إليه.. تقع عيناي على اللافتة السوداء وأتذكر حينئذ أنني قرأت ذات مرة في كتاب ما أو صحيفة.. لكاتب آشوري هذا القول الرائع والعظيم:

"من أجل بقائنا نحن أحفادهم اليوم شهداؤنا استشهدوا في سميل"، نعم من أجل بقائنا نحن الأبناء والأحفاد، قُتل الآباء والأجداد في سميل "وغير سميل".. قُتلوا وهم عزّل من السلاح .

أعود إلى محدثي وقد اقتربت منه كثيراً وقلت له ولحظات صمت طويلة فصلت بيننا لبعض الوقت وقد توقف آخر المصفقين عن التصفيق: لماذا تعتقد أنني لست هنا ؟.

قال وهو يؤكد على قوله: الأمر واضح وضوح الشمس في كبد السماء.. لأنني أحسك ساهماً شارداً... قلت له مقاطعاً: قد لا تصدق إن قلت لك.. أنني كنت أتلذذ بأكل حبّات من العنب الخابوري الأبيض الذي بلون الشمس.. ابتسم وهو ينظر إليّ بدهشة واستغراب وكأنه لا يصدق ما سمعه مني!.

فقلت له على عجل: لا تستغرب ولا تندهش، سأخبرك بذلك فيما بعد وفي غير هذا المكان.. ولكن دعنا الآن نستمع إلى ما يقال في هذه المناسبة.

قال باقتضاب وهو يلمّح لي ويلح علي بأن أكمل له بقية حديثي: ماذا تعتقد.. هل سيقال أكثر مما قيل حتى الآن؟!. أسمع من جديد التصفيق يرتجّ في المكان ويدوّي صوته عالياً يصمّ الآذان، أحد الجالسين بجانبي.. "أو أنا أجلس بجانبه لا فرق".. غير ذلك الذي حدثته عن عنقود العنب الخابوري الذي بلون الشمس، يحدثني ويقول مازحاً "كما قال الكثيرون ساخرين كانوا أو مداعبين أو معلقين": كل الحق على "إيوان أغاسي" لأنه غنى لنهر الخابور فأصابته العين.. ابتسامة حائرة ترتسم على وجهي.. والصمت يأخذني في رحلة طويلة وأنا أبحث في خاطري عمّا يمكن أن أقوله في قول محدثي أو أضيف عليه ساخراً أو ضاحكاً – وشر البلية ما يُضحك – ولكن.. وقد أعيتني الحيلة أخذت أهز برأسي مرات ومرات قائلاً له:

ربما قد يكون هناك شيء من هذا القبيل.. من يدري!.

ورحتُ أحدث نفسي متسائلاً: هل يُعقل أن يحدث هذا؟!. وهل حقاً حين غنينا في أفراحنا ومناسباتنا لنهر الخابور مع "إيوان أغاسي"٢ أغنيته الشهيرة: "خابور خابور".. قد أصبناه بالعين في عيونه وفي ينابيعه وفي مجراه ؟!. أم أن هناك أمور أخرى نجهلها ؟!. ولكن ما غنى "إيوان أغاسي" لنهر الخابور إلا صدقاً وحقاً، إلا حباً وعشقاً، إلا هياماً وتيهاً، إلا تباهياً وانبهاراً، إلا إعجاباً وتقديراً.. لأبنائه الخابوريين البسطاء الطيبين، لأنه وجد منهم وفيهم على ضفاف الخابور وبين جنباته وفي قراه.. كل الترحيب والتحية وكل الحب والمودة والوفاء، وما غنى إيوان إغاسي "للخابور وأبنائه".. إلا عرفاناً بالجميل العظيم لهذا النهر العظيم.. "لأن الحضارات العظيمة لا تقوم إلا على الأنهار العظيمة".. وما قاله في الخابور ليس إلا كما قاله في الحب والجرح والألم والوطن والشهادة والأرض والحياة، وما قلناه نحن أيضا اليوم.. وفي هذه المناسبة العظيمة والجليلة.. لم يكن إلا في الحب والجرح والألم والوطن والشهادة والأرض والحياة.

* الخاتمة:

"لقد رأيت وسمعت الكثير من الاعمال المريعة والبشعة خلال الحروب.. الا ان ما شاهدته في "سميل" يفوق تصور البشر". ضابط انكليزي – شاهد عيان.

مذبحة "سميل" صرخة مدوية في ضمير البشرية منذ "٧٥ سنة".. ولكن هذا الضمير لم يصحو من سباته طوال هذا الزمن البعيد. فكيف لنا أن نجعله بالحق يصحو.. ان لم يكن.. بالقوة يصحو!. رجل اشوري يتساءل اليوم.

دوركات ليمو: أكبر مقاطعة آشورية على نهر الخابور، جاء ذكرها في حوليات الملوك الآشوريين.. أيام الملك "آشور بل كالا" في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وذكرت أيام الملك "توكلتي نينورتا" الثاني.. وتعود النصوص التي عثر عليها في هذه المدينة إلى العهد الآشوري الأوسط.. وبالذات أيام الملك "شلمانصر" الأول عام ١٢٠٨ قبل الملاد. و. "دوركات ليمو".. هو تل الشيخ حمد، على الضفة الشرقية لنهر الخابور الأسفل.. ويبعد عن مدينة دير الزور حوالي ٧٠كم باتجاه الحسكة.. ويقع بالقرب من قرية غريبة التابعة لناحية الصور.

٢ إيوان أغاسي: هو المغني الآشوري المعروف، وأشهر من غنى الأغنية الآشورية المعاصرة !.

خاطرة

شوق ووصال

لونا يوآرش هيدو

اخاطبكم بقطرات الدموع
واكتب لكم من قلبي
الموجوع
فرغم كل احزاني
مازال عندي امل ثانِ
قد ضاع عمري كله هباء
والايام كلها شقاء
تمنيت لو كنت بسمة
للبائسين
لو اني وردة حمراء تهدى
للعاشقين
حرموني نعيم الحياة
وسببوا لقلبي الاف
الآهات
والان قفلت لليأس كل
الطرقات
وكتبت بقلبي احلى
العبارات
لينقلب الالم الى اغنية
فلم يخلق القلب الا ليهب
نفسه
مع دمعة.. اغنية

أنا الغنيّ بتجاعيدي

شاكرمجيد سيفو

١ـ أنا الغنيُّ جداً
لديَّ المزيد من الكحول
لأحرق الكون..

•••

٢ـ أنا الفقير جداً
لديَّ المزيد من
التجاعيد
لأهرق هيأة الجمال جمال
الكون والخلائق..

•••

٣ـ أنا الثمل ـ دائماً ـ
منيّ ـ من رائحتي
تثمل كل نبتةٍ تميل
اليَّ..

•••

٤ـ كلّما أستعير روح
أبي
يركض بي مقطّه
الكبير
الى خان الجلود
لأخيط لجسده الجديد
فروةً جديدة

•••

٥ـ لي عين ثالثة
أرى بها خدعة مكياجِك ـ
دائماً..

•••

٦ـ أصغي لدمي
لخريره الجبّار
وأكتشف حياةً أخرى لي
خارج جسدي..

•••

٧ـ حين بتروا قدمي
لم أدخ
لكنّ أمّي داخت وهي
تستحم
بفضّةِ شيخوختها..

•••

٨ـ كلّ مساء
أسأل أبنائي عن
تجاعيدي
ويأتيني صوتٌ ثقيل
يطلع من حائط غرفتي
الرماديّة،
ويقول: تعالَ، أحص
تجاعيدك المدوّنة هنا!

•••

٩ـ لابدّ أن أطمئنّ على
أعدادها
لأزيّن بها قبّة ناقوس
حياتي..

مفهوم التربية أصداء ذاتية... وبقايا صور من الحضارات البدائية

الحلقة الثالثة

إبراهيم الجابري

اهتمت الحلقات السابقة باستعراض مفاهيم التربية وتطورها عبر العصور المختلفة التي عاشتها المجتمعات البدائية ولاحظنا ان تلك المفاهيم التربوية تأثرت بشكل كبير بالفلسفات المثالية وكذلك تفاعلها بالعوامل السياسية الاجتماعية والاقتصادية والفكر ية للمجتمع وفي هذه الحلقة نفرد مساحة جيده للتربية ومفاهيمها وتطورها في تراثنا العربي وبعد ان نكمل النظريات العربية في التربية سنحاول استعراض النظريات الليبرالية في القرن العشرين انشاء الله.

الحديث سيكون في التراث العربي عبر العصور المختلفة بدا بما كان عليه الوضع التربوي في فترات بعيدة في مناطق متعددة من وطننا العربي قبل ظهور الإسلام وقبل ان نتعر ف على الثقافة التربوية ومفاهيم التربية وكذلك أساليبها في تراثنا العربي قبل الإسلام وفهمها بالشكل المتكامل لابد من الرجوع إلى الوراء عدة مئات او آلاف من السنين لنتعرف على المفاهيم والأساليب التربوية وطبيعة الأوضاع الاجتماعية السائدة آنذاك وستبدأ دراستنا أولا في وادي الرافدين ثم وادي النيل وبعد ذلك الجزيرة العربية أذن يعتبر وادي الرافدين من أقدم العصور الحضارية وقد مهد لحضارات عديدة شملت المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية كحضارات السومريين والبابليين والأشوريين الذين لاتزال آثارها قائمة حتى يومنا هذا كما تشير الدراسات التاريخية إلى انه كان في جنوب العراق حوالي عشرين دويلة لها حضارتها وتنظيماتها الاجتماعية والسياسية ان دراسة الحضارات التي انتشرت في وادي الرافدين تشير إلى مدى التقدم الذي وصل إليه الإنسان في تلك الأزمان كحمورابي ومسلته المشهورة وآشور بانيبال

ومكتبته وغيرها كلها شواهد على التقدم الحضاري في ذلك الوقت وقد كانت الكتابة معروفة في ذلك الوقت حيث كان يستخدم الطين المفخور لهذا الغرض وقد اكتشفت الكثير من الأدبيات البابلية التي تشير الى التطور العلمي وبخاصة في مجال الادب والرياضيات والزراعة وتوكد الأدبيات التي اكتشفت ان البابليين كانوا أول من اكتشف عددا كبيرا من القوانين الرياضية والعلمية الحسابية كنظام العدد وتقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ومبادئ الرياضيات كالقسمة والتربيع والتكعيب وإيجاد الجذور التربيعية هذا إضافة إلى تقدمهم في علم الفلك واكتشاف خمسة من الكواكب وحساب مداراتها كما أنهم قسموا الزمن الى سنوات وأشهر وأيام وكذلك ساعات اما الحضارة الأشورية في ذلك الوقت محتويات مكتبة آشور بانيبال من الكتب الدينية والعلمية والأدبية التي كتبت بلغات عده تشير الى التطور العلمي والثقافي الذي كان عليه الاشوريون في ذلك الوقت ورغم عدم توفر المعلومات الكافية والتفصيلية عن النظام التربوي الذي كان سائدا في دويلات وادي الرافدين إلا أن ما بلغته تلك الحضارة من شانه أن يتيح للمتتبع الاستنتاج أنهم عرفوا أنماطا عديدة من المدارس الابتدائية والثانوية وهناك المعاهد العالية المتخصصة في الرياضيات والأدب والزراعة كما يبدو انه كان هنالك اهتمام بالتعليم الفني الذي يهدف إلى أعداد الفنيين في مجالات استخراج الحديد ودبغ الجلود وصناعة وهندسة الطابوق وغيرها ويرى بعض الباحثين ان الآشوريين وضعوا تصنيفات رائعة للمملكة الحيوانية والنباتية وتدل مكتشفات أخرى ان علماء تلك البلاد كانوا يملكون بعض الآلات البصرية التي يستخدمونها في نقش الأحرف على الرقاع

والاسطوانات ويقول بعض الباحثين ان مدينة بابل كانت مركز نشاط فكري حافل وكان الملك نفسه يرعى في قصره مدرسة بابل التي تدرس فيها اللغات والعلوم الطبيعية والفلك والرياضيات ومدة الدراسة فيها ثلاثة أعوام وتقوم الدولة بالإنفاق عليهم وعندما ينهون الدراسة يقوم الملك بامتحانهم بدقة ليختبر ذكاءهم وحكمتهم ان الأنظمة التربوية في حضارات وادي الرافدين كانت قد وصلت الى مراحل عالية من التقدم والتنظيم وتمثل انعكاسا طبيعيا للأنظمة الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة آنذاك اما في وادي النيل المصري تعد حضارتهم من الحضارات القديمة التي كان الدين الطابع الرئيس للحياة فيها وقد كان النظام السائد آنذاك طبقيا ويحتل الكهنة المنزلة الأولى ولهم السلطة الكبرى على الشعب والفراعنة وتضم الطبقة الثانية المحاربين في حين ينضوي تحت الطبقة الثالثة باقي إفراد الشعب من فلاحين وعمال وتجار وغيرهم ويؤكد المؤرخون أن التربية في وادي النيل كانت قد وصلت درجة عالية من التقدم فقد كان المعلم يعتبر من الطبقة الأولى كما كان هنالك الدراسة الأولية التي سميت ببيت التعلم ويدرس فيها الدين وآداب السلوك والقراءة والكتابة والحساب ورياضة الأبدان والرسم والمحاسبة والجغرافية وكان هناك اهتمام الدراسات الفنية والمهنية على مستوى التعليم العالي فقد أعطي الطب والهندسة والفلك أهمية كبرى في تلك الدراسات وقد أدى الاهتمام بالتربية في وادي النيل في ذلك الوقت إلى تطور الحياة وازدهارها في الزراعة والعمران والتجارة ولكن لابد من الاشاره إلى أن التعليم كان مقصورا على طبقات معينه من المجتمع إما الجزيرة العربية كانت قبل الإسلام في جنوب الجزيرة ووسطها وشمالها حضارات عريقة تشير إلى تقدمهم وتطورهم في مختلف الحياة آنذاك . ففي كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي يقول كانت حضارة عرب اليمن في الجزيرة وفي الشمال تدمر والجزيرة وفي الوسط كانت حضارة عرب الحجاز ونجد التي بدا عهدها من أواسط المئة الثالث بعد الميلاد وفي ظهور الإسلام في المئة السابعة للميلاد فقد اهتم العرب بعلوم الإنسان وإحكام الفلسفة والشعر والخطابة كما كانت لهم معرفة بعلم الفلك وكان للحضر من العرب دراية بكثير من العلوم الأخرى كالهندسة والري كما وجدت الكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة لقد كانت الأهداف الرئيسة للتربية في عصر ما قبل الإسلام هي الرجال لفنون القتال والدفاع عن القبيلة إما لدى الحضر فقد كانت التربية تهدف إلى أعداد الإحداث لبعض الصناعات والمهن المختلف كالهندسة والطب والبناء والنقش والنجارة وغيرها من المهن وكانت التربية تهدف إلى غرس العادات والقيم الفاضلة والصفات الجيدة كالصبر والشجاعة والكرم والدفاع عن الأرض والصديق وغيرها ويذكر محمد أطلس عن وسائل التربية بقوله تباينت الوسائل لتباين الحياة التي كان يعيشها العرب ويحكي تصنيف هذه الوسائل كما يأتي في القسم الأول الوسائل التربوية المستخدمة في البادية وقوامها الأسرة ثم القبيلة فقد كانت الأسرة والقبيلة هي الوسائل الأساسية التي يتعلم منها الطفل جوانب الحياة المختلفة كلها وقد كان كثير من الأمور يتدرب عليها الطفل بشكل غير مقصود عن طريق مصاحبته للكبار وتقليده إياهم سواء كان ذلك في الأسرة ام في القبيلة كما ان الأسرة والقبيلة تقوم بشكل مقصود بتدريب النشىء على الفروسية والالتزام بالصفات والتقاليد الخاصة بها وقد كانت الأسواق ومجالس الآداب من الوسائل التربوية المهمة لعرب الباديه فلقد كانت تعقد تلك المجالس لتبادل الحديث والإخبار والقاء القصائد كانت الأسواق كسوق عكاظ من الأماكن التربوية المهمة التي يحضرها عرب البادية في أوقات معينه لإنشاد الشعر وإلقاء الخطب وتداول الإخبار ويشير إلى القسم الاخر من الرسائل التربوية لدى عرب الحظر فقد كانت لدى عرب الحظر إضافة إلى الأسرة مؤسسات تعليمية ابتدائية وعالية وهنالك ما

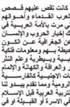يدل على انه كان لكل من القسمين الابتدائي والعالي مدارس ومعاهد خاصه به حيث كان الناس يتلقون في القسم العالي دروسا في علم الفلك والطب والتاريخ والآداب وغيرها فلقد كانت تقص عليهم قصص الأنبياء والعرب القدماء وأحوالهم والإحداث التي مرت بالأمة العربية في السابق وكذلك إخبار الحروب والإنسان ومعلومات عن الجغرافية عن الكون والبلدان المحيطة بهم ومعلومات فلكية وطبيعية وطبية وبيطرية وعلم النثر والشعر والعرافة والكهانة والإلمام ببعض اللغات الاجنبية كالفارسية والحبشية والرومية ومما تقدم يبدو لنا واضحا أن التربية العربية قبل الإسلام سواء كانت في الاسرة أو القبيلة او في مؤسسات التعليم كانت تستند إلى مبادئ عقلية واجتماعية خلقية متكاملة واختم بقول الكاتب احمد شلبي في تاريخ التربية الاسلاميه ان المبادئ الخلقية والاجتماعية يربط بينهما مفهوم ثقافي يتلخص بالبطولة يؤكد رمزية الشخصية الموحدة المتماسكة التي تدرك بان لها هدفا كبيرا .